وما سواها (265)

ما ينفع ولا ينفع!!

د. صادق السامرائي- الطب النفساني، العراق / أمريكا
sadiqalsamarrai@gmail.com

ما ينفعنا يتحول إلى ما يضرنا لأسباب كامنة فينا , ونحتاج إلى تفسير ووعي لكي نأتي بما يصلح للأجيال المتوافدة إلى نهر الحياة , الذي نُعكّرُ مياهه ونضع أمامه المعوقات والعثرات المريرة , دون أن نرعوي ونتعلم من التجارب والمحن والخطوب.

ومن الأمثلة الواضحة أن نعمة النفط التي من المفترض أن تنفعنا , أمعنا في تسخيرها لما يضرنا ويدمرنا ويزيدنا ضعفا وهوانا.

وهذه بعض الإقترابات التي تشير إلى تفاعلاتنا المرهونة بوجوب الإضرار بنا!!

أولا: قول الحقيقة لا ينفع!!

في المجتمعات المعاصرة تكون الأقلام أعمدة أساسية في البناء الديمقراطي , ورسالتها واضحة , وهي قول الحقيقة والعمل على إظهارها بشجاعة معززة بأدلة وبراهين؟

وإذا فقدت الأقلام رسالة الحقيقة , فلا وجود للديمقراطية مهما توهمنا وتصورنا.

وفي مجتمعات الحقيقة المقهورة , والفساد السائد القدير , لا يمكن القول بوجود ديمقراطية , لأنها مختصرة بصناديق الإقتراع المسيّرة وفقا لإرادات لا ديمقراطية.

وخصوصا عندما يكون الرأي مملوكا ومبرمجا بآليات التبعية والمهارات التخويفية والترعيبية الفاعلة في المجتمع , والتي تقودها العمائم المتاجرة بالدين والبلاد والعباد.

فهذه ديمقراطية قطيعية , يتحول فيها الناس إلى موجودات مجردة من قدرات التعبير عمّا فيها , وإنما هي أدوات للتعبير عن رغبات وتطلعات الذي تتبع وتخنع في ظلاله , وتؤدي له مراسيم الطاعة والخضوع المطلق المبرقع بما هو ديني ومقدس.

ومهما حاولت الأقلام أن تأتي إلى ضفاف الحقيقة , فأنها تبدو شاذة ومعادية للقطيع الراتع تحت أذيال جبة عتيدة , مما يعني أن الأقلام لن تجد مَن يقرأها أو يتأمل ما تكتبه لأنه وبحكمية مسبقة قد أصبح عدوها.

فالحقيقة لا قيمة لها ولا معنى في مجتمعات لا تريدها , وتجد أن من الأفضل أن تتحرك في متاهات الضلال والبهتان , والإمعان في صناعة الطغيان والتلذذ بالإمتهان , الذي تمنحه عناوين دينية ومنطلقات وهمية ذات تبريرات تحررها من المسؤولية , وتشحنها بطاقات وقدرات إلقاء اللوم والتبعية على الآخر.

ما ينفعنا يتحول إلى ما يضرنا لأسباب كامنة فينا , ونحتاج إلى تفسير ووعي لكي نأتي بما يصلح للأجيال المتوافدة إلى نهر الحياة

من الأمثلة الواضحة أن نعمة النفط التي من المفترض أن تنفعنا , أمعنا في تسخيرها لما يضرنا ويدمرنا ويزيدنا ضعفا وهوانا

في المجتمعات المعاصرة تكون الأقلام أعمدة أساسية في البناء الديمقراطي , ورسالتها واضحة , وهي قول الحقيقة والعمل على إظهارها بشجاعة معززة بأدلة وبراهين؟

إذا فقدت الأقلام رسالة الحقيقة , فلا وجود للديمقراطية مهما توهمنا وتصورنا.
وفي مجتمعات الحقيقة المقهورة , والفساد السائد القدير , لا يمكن القول بوجود ديمقراطية لأنها مختصرة بصناديق الإقتراع المسيّرة وفقا لإرادات لا ديمقراطية

وهكذا فأن الأقلام لا قيمة لها ولا دور في بناء الوعي وتنوير العقول , ما دامت الرؤوس معبأة بما يتنافى والواقع المعاش , وأنها محلقة في فضاءات الوعود الخيباوية والتصورات اللذائذية المتحققة عبر المعاناة الشاقة , والمرارات القاهرة الفاعلة في وجودها الدنيوي الفتاك.

ولا يمكن تحرير الناس من الأوهام الراسخة فيها بقوة الدين المستباح , والمصنع لتمرير التجارات الرغبوية الكامنة في أعماق ذوي العمائم التجارية التي تجني أرباحا خيالية , فما أوفر بضائعها من الدين والبشر التابع القابع في أوعية الأرقام.

فهل من قدرة على وعي الواقع التحرر من قيود الظلام؟!!

ثانيا: وهل ينفع التألم؟!!

قال لي: كلما تأملت جواهر الأفكار الدينية ، أشعر بالألم والحزن والقلق , ذلك أن الكثير من المسلمين يبتعدون عن تلك الدرر المنيرة النقية الصافية , ويتبعون الذين ينعقون بما لا يفقهون ويستثمرون في جهل الجاهلين ، ويحوّلون الدين إلى بضاعة تجارية وسياسية ، ووسيلة لتحقيق الرغبات الشخصية والتطلعات الدنيوية الدونية.

أتألم كثيرا، وأنا أطوف في فضاءات الموسوعات الفكرية على مر العصور، وأقف مبهورا أمام قوة الكلمات وجمان الأفكار الإنسانية ، التي ركنّاها على رفوف أميتنا وكسلنا وضيق أفق تفكيرنا، وإتبعنا الأنداد ذوي المسميات والعناوين والمناصب والقوة والسلطان.

أتألم عندما أرى المسلم العربي، لا يفهم ما يقرأه من القرآن , ولا يعرف معنى أبسط الآيات , ولا يمكنه أن يدرك ما يسمعه ، وإنما يتأثر بأنغام الترتيل والتجويد وحسب.

أتألم وأنا أرقب الذي يبتعد عن لغة الضاد ، ويتحدث بلغة الدنيا الأخرى ، وكأنه يريد القضاء على نفسه وهويته ووجوده.

أتألم وأنا أرى مَن ، ينكر تأريخه ويذل رموزه وأعلامه ، ويقاتل أنوار المسيرات الحضارية العربية الساطعة ، التي رسمت معالم الصيرورات الإنسانية الكبرى.

أتألم حينما أشاهد مُدّعي الإسلام ، يتحدث وكأنه العالِم الداري بما يقول ، وما ينطق إلا السفه والسوء والبغضاء والكراهية والبهتان والضلال ، ويصرّ على أن ذلك هو الدين وما سواه عدو الدين.

أتألم وأنا أجالس أصحاب الشهادات والإختصاصات ، وأجدهم يتمتعون بأمية قاسية عن التأريخ العربي ، ويعيشون في وهم المعرفة والدراية ، وعندما تتحدث معهم عن التأريخ يتفاعلون معك بنرجسية وكبرياء ، وكأنك قد أنزلتهم من مقاماتهم السامقة ، فكيف تقول ما لا يعرفون، وإن ما تقوله غير موجود ، لأنهم لا يعرفونه ولم يسمعوا به من قبل , وعندما تسألهم عن أبسط أبجديات التأريخ تراهم بوجهك يحملقون.

أتألم على حالنا ومصيرنا عندما أجد المسلم غير العربي يعرف الإسلام أكثر من المسلم العربي، ويعرف معاني الآيات والكلمات القرآنية بلغته أكثر من العربي ، وعنده ثقافة واسعة عن مسيرة الصحابة والتابعين ويدرك بوضوح معايير وخُلق الإسلام القويم.

أتألم جدا، عندما يقترب مني مثقف ، ويقول : عن أية حضارة وتأريخ عربي تتحدث ، إنها أكاذيب وإفتراءات ، فنحن بلا تأريخ ولا حضارة ، نحن همج رعاع لا نعرف إلا الإقتتال على مر العصور،

الحقيقة لا قيمة لها ولا معنى في مجتمعات لا تريدها , وتجد أن من الأفضل أن تتحرك في متاهات الضلال والبهتان , والإمعان في صناعة الطغيان والتلذذ بالإمتهان

هكذا فأن الأقلام لا قيمة لها ولا دور في بناء الوعي وتنوير العقول , ما دامت الرؤوس معبأة بما يتنافى والواقع المعاش

قال لي: كلما تأملت جواهر الأفكار الدينية ، أشعر بالألم والحزن والقلق , ذلك أن الكثير من المسلمين يبتعدون عن تلك الدرر المنيرة النقية الصافية , ويتبعون الذين ينعقون بما لا يفقهون ويستثمرون في جهل الجاهلين

أتألم عندما أرى المسلم العربي، لا يفهم ما يقرأه من القرآن , ولا يعرف معنى أبسط الآيات , ولا يمكنه أن يدرك ما يسمعه ، وإنما يتأثر بأنغام الترتيل والتجويد وحسب

أتألم وأنا أرقب الذي يبتعد عن لغة الضاد ، ويتحدث بلغة الدنيا الأخرى ، وكأنه يريد القضاء على نفسه وهويته ووجوده

أتألم وأنا أرى مَن ، ينكر تأريخه ويذل رموزه وأعلامه ، ويقاتل أنوار المسيرات الحضارية العربية الساطعة ، التي رسمت معالم الصيرورات الإنسانية الكبرى

أتألم على حالنا ومصيرنا عندما أجد المسلم غير العربي يعرف الإسلام أكثر من المسلم العربي،

وعندما أقول له وهل قرأت تأريخ غيرنا من الأمم لتعرف قيمة تأريخنا ، يغضب أكثر ، ويحسب أني أحط من قدره ورأيه.

أتألم لأننا أصبحنا أعداء عروبتنا ولغتنا وديننا وحاضرنا وماضينا ومستقبلنا.

وما نحن إلا نسعى إلى مسيرة إنتحارية جماعية ستمحق وجودنا العربي الأصيل.

فهل من يقظة وغيرة على العروبة والتأريخ والدين؟!

وهل تتألمون معي، أم تنكرون ألمي؟!

فقلت: وهل ينفع التألم في نهر الآلام الدافق؟!

وإنّ الأمم والشعوب تكون حينما تريد أن تكون , فإلى متى نبقى متوحلين في أطيان لا أكون؟!!

ثالثا: الطرق على الأبواب لا ينفع يا عرب!!

طرق الأبواب عادة أتقنها الشعراء المداحون في الأزمان العربية السالفة , فكان ذوي النعمة والقوة والسلطان , هدفا لكل مدّاح يريد أن يملأ جيوبه بمال.

وكأن هذه العادة قد تطورت وإنعكست بالسلوك السياسي العربي , فأنظمة العرب السياسية ومنذ تأسيس دولهم وحتى اليوم , لا تعرف إلا الوقوف على أبواب الأقوياء وإستجداء القوة والسلاح منهم.

وبعضهم لا يجرؤن الإقتراب من عتبة أبواب الأقوياء , أو طرقها , وإنما ينادون على أصحابها عن بعد , وبإغراءات مالية ومدائح كرسوية وإذعانات مغرية وتبعية مقرفة ودعوات لتحقيق المصالح والخطط والبرامج.

والعرب يطرقون أبواب الأقوياء وينثرون على عتباتها أموال النفط هباة ومنح وتبرعات ومحفزات , لكي يبيعهم القوي ما لا يريده من سلاح وبأبهض الأثمان , لأنهم ربطوا مصيرهم بما يشترونه من آلات الدمار الذاتي والموضوعي.

فالعرب لا يعرفون صناعة السلاح , وما دخلوا ميادينها , وإن حاولو فأنهم إنقطعوا وما بلغو شأوا وقدرة على الإكتفاء الذاتي.

فالذي لا يصنع سلاحه , يخضع ويتبع وتنتقص سيادته , فما دام العرب يعجزون عن تسليح أنفسهم , فأن سيادتهم منقوصة أو مفقودة , وبسبب ذلك يجري في ديارهم ما يجري ويتأكد من الإضطرابات والنكبات والتفاعلات السلبية الفاسدة الدامية المشينة , المؤدية إلى خسران كبير والمعززة بالضلال والبهتان المطلوب.

وما بقي العرب يحجون إلى أبواب الأقوياء ويتذللون أمامها ويحلمون بطرقها , فأن مصير وجودهم الحضاري في خطر ومأزق مروع.

فهل سيدرك العرب آليات التفاعل الحضاري المعاصر , وهل سيتوصلون إلى فهم حقيقة التفاعل مع الأقوياء , وصناعة قوتهم وقدرتهم الحضارية اللازمة لبقائهم؟!

والقوة في الوحدة والضعف في الفرقة , وعلى العرب يقع الخيار ما بين التراب والذهب!!

ويعرف معاني الآيات والكلمات القرآنية بلغته أكثر من العربي ، وعنده ثقافة واسعة عن مسيرة الصحابة والتابعين ويدرك بوضوح معايير وخُلق الإسلام القويم

أتألم جدا، عندما يقترب مني مثقف ، ويقول : عن أية حضارة وتاريخ عربي تتحدث ، إنما أكاذيب وإفتراءات ، فنحن بلا تأريخ ولا حضارة ، نحن همج رعاع لا نعرف إلا الإقتتال على مر العصور

أتألم لأننا أصبحنا أعداء عروبتنا ولغتنا وديننا وحاضرنا وماضينا ومستقبلنا.
وما نحن إلا نسعى إلى مسيرة إنتحارية جماعية ستمحق وجودنا العربي الأصيل

هل من يقظة وغيرة على العروبة والتأريخ والدين؟!
وهل تتألمون معي، أم تنكرون ألمي؟!

طرق الأبواب عادة أتقنها الشعراء المداحون في الأزمان العربية السالفة , فكان ذوي النعمة والقوة والسلطان , هدفا لكل مدّاح يريد أن يملأ جيوبه بمال

العرب يطرقون أبواب الأقوياء وينثرون على عتباتها أموال النفط هباة ومنح وتبرعات ومحفزات , لكي يبيعهم القوي ما لا يريده من سلاح وبأبهض الأثمان , لأنهم ربطوا مصيرهم بما يشترونه من آلات الدمار الذاتي والموضوعي

الذي لا يصنع سلاحه , يخضع

رابعا: الذي لا يصنع هل ينفع؟!

المجتمعات الصناعية نافعة ومساهمة في بناء أروقة الحياة الأروع , والمجتمعات التي لا تصنع تبدو وكأنها لا تنفع!!

فمجتمعاتنا لا تصنع , ولعدم تصريف طاقاتها في الإبداع المادي والإختراع والعطاء الإبتكاري , فأنها تعاني من إنبعاجات مروعة تستهلك فيها طاقاتها الإيجابية بتفاعلات سلبية تدميرية.

فالطاقات البشرية بحاجة إلى منافذ للإنطلاق والجريان , وإلا إختنقت وتأسنت وتعفنت وأحدثت تفاعلات وتبدلات ضارة بالحياة.

ولا بد من النظر لهذه المعضلة الحضارية المعاصرة التي تواجهنا , وإلا فأن الأجيال ستتوارث آليات تفاعلية إنقراضية وذات درجات خسران عالية.

فمن الأفضل لمجتمعاتنا أن تتوجه نحو إتجاهين مهمين في هذا العصر , هما الزراعة والسياحة والبناء.

فالعقول الوطنية بأسرها عليها أن تتفاعل مع الأرض والماء بأساليب جديدة تتمكن بها من توفير الغذاء اللازم للمجتمع , وأن تتعلم كيفيات الإستثمار بالمياه , وعدم هدرها في البحر.

فمياه الأنهار عليها أن تستغل إلى أقصاها , بإقامة الأنظمة الإروائية , ونقل المياه إلى بحيرات إصطناعية تساهم في تغييرات بيئية تزيد من المساحة الخضراء فتستجلب المطر.

ويتحتم على مجتمعاتنا الإبداع بالبناء والجمال اللائق بمدننا لكي تجذب السياح إليها , فالمنطقة غنية بالمعالم السياحية , ويمكنها أن تستقطب مئات الملايين كل عام , وخصوصا من السياح الصينيين واليابانيين والكوريين والأوربيين.

إن أمام مجتمعاتنا خيار حضاري معاصر واحد لا غير , خلاصته أن تتحول إلى دول زراعية متطورة وسياحية جذابة للسائحين , ويمكنها بالجد والإجتهاد أن تكون صناعية منافسة للآخرين ,فالقدرات الفردية يمكنها أن تستثمر طاقاتها كيفما إستطاعت ورأت.

فلابد أن نكون واقعيين في رؤيتنا وتطلعاتنا , لأن القوة في العمل وليس في النفط , وعلينا أن نعمل ونجتهد ولا نيأس , وأن نتحرر من أوجاع الخسران , ونتعلم مهارات أكون!!

خامسا: النافع ينتصر!!

الحياة محكومة بقانون المنفعة العامة , فما يحقق مصلحة الناس يبقى ويسود ويتوارث , وما لا يحقق مصلحتهم ينقرض ويذهب هباءً , برغم ما يمتلكه من قوة وقدرة على التاثير في المكان والزمان , والأمثلة لا تعدّ ولا تحصى في عصور التأريخ المتعاقبة.

فالحركات والأنظمة التي ما نفعت إحترقت وتحولت إلى رماد , وأعتى تلك الحركات كانت بقيادة التتار , الذين عاثوا في الأرض فسادا , وأحرقوا معالم المدنية المعاصرة آنذاك , لكنهم ذابوا في رمال العصور وبيداء الزمان.

والصراع بين النافع والضار متواصل ولن ينتهي , وهو تعبير عن الصراع الدائب ما بين الخير والشر , وفي خاتمة هذه الصراعات يخرج الخير منتصرا ومؤزرا بقدرات إضافية جديدة ذات إمتدادات حضارية

ويتبع وتنتقص سيادته , فما دام العرب يعجزون عن تسليع أنفسهم , فأن سيادتهم منقوصة أو مفقودة

ما بقي العرب يحجون إلى أبواب الأقوياء ويتذللون أمامها ويحلمون بطرقها , فأن مصير وجودهم الحضاري في خطر ومأزق مروع

مجتمعاتنا لا تصنع , ولعدم تصريف طاقاتها في الإبداع المادي والإختراع والعطاء الإبتكاري , فأنها تعاني من إنبعاجات مروعة تستهلك فيها طاقاتها الإيجابية بتفاعلات سلبية تدميرية

إن أمام مجتمعاتنا خيار حضاري معاصر واحد لا غير , خلاصته أن تتحول إلى دول زراعية متطورة وسياحية جذابة للسائحين

لابد أن نكون واقعيين في رؤيتنا وتطلعاتنا , لأن القوة في العمل وليس في النفط , وعلينا أن نعمل ونجتهد ولا نيأس , وأن نتحرر من أوجاع الخسران , ونتعلم مهارات أكون!!

الحياة محكومة بقانون المنفعة العامة , فما يحقق مصلحة الناس يبقى ويسود ويتوارث , وما لا يحقق مصلحتهم ينقرض ويذهب هباءً

الصراع بين النافع والضار متواصل ولن ينتهي , وهو تعبير عن الصراع الدائب ما بين الخير والشر , وفي خاتمة هذه الصراعات يخرج الخير منتصرا

وإنسانية راقية.

وفي أوقات المنازلة قد يسود الشر لفترة ما , لكنه سينهزم حتما , لأنه لا ينفع الناس , وقد يكون نافعا كقوة لإستنهاض إرادة الخير في أعماق النفوس البشرية , التي تناست دورها وقيمها وأخلاقها ومعاييرها السلوكية , وجهلت عقائدها ومبادئها ومعاني مسيرتها.

وما يجري في واقعنا الذي يبدو أليما وقاسيا ومشحونا باليأس , أن الأنظمة الجديدة القائمة في المجتمعات التي هبت نحو الديمقراطية , لم تؤسس لأنظمة حكم تنفع الناس , وإنما في معظمها صار الحكم فئويا وتحزبيا وربما أكثر من ذلك , أي أنها إنتهجت سبلا لا تنفع الناس , مما أهلت القوى الأخرى لكي تكون أكثر نفعا للناس , وهذا تسبب في تناميها وفرض سيطرتها على مناطق عديدة من البلدان , لأن الناس تنجذب إلى ما هو أنفع في لحظة زمنية ومكانية محددة , ولا تستطيع أن ترى أبعد من ذلك , بسبب أهوال التضليل والتيئيس , وفقدان النظام والقانون , والأمن ولإستقرار , وشيوع الإضطرابات , وكحاجة نفسية فأن الناس تتحول إلى غرقى تريد أن تتشبث بقشة فلربما تعصمها من الغرق الأكيد.

ولهذا فإن علاج التداعيات لا يكون بالمواجهات الضارية , وإنما بتأمين حاجات الناس الأساسية , التي تتلخص , بالنظام النزيه العادل الإنساني الرحيم , وسيادة القانون والدستور الوطني الصريح , والجيش والشرطة وقوى الأمن الكفوءة , وبناء الدولة المسؤولة عن هموم المواطنين , وبالقيادة الحكيمة الواعية المثقفة المتفاعلة بنكران ذات وتسامي أخلاقي وسلوكي قادر على صناعة القدوة الحَسنة الضامنة لسلامة الأجيال , والراعية لتطلعاتهم وطموحاتهم وحقوقهم الإنسانية.

إن فقدان هذه المرتكزات في أي مجتمع , يساهم في إستدعاء القوى السلبية لتكون هي المطلب اللازم لتوفير الحاجات النفسية الضرورية للحياة في أي مكان.

فهل سترتقي القيادات إلى مسؤولياتها وتعي حقيقة ما يجري , وتجتهد بالإجابة الشافية للخروج من دوامة الخسران الشديد؟!!

وفي الختام علينا أن نفكر بما ينفعنا ونستثمره , ونعرف ما يضرنا فنتجنبه ونناى عن سبله , فالحياة تتطور بالعمل النافع المؤمّن للمصالح المشتركة في المجتمع , وواقعنا على مدى أكثر من قرن يفتقر إلى آليات ما ينفع وتتكاثر فيها مهارات ومناهج ما يضر.

فهل لنا أن نرى بعين ينفع؟!

في أوقات المنازلة قد يسود الشر لفترة ما , لكنه سينهزم حتما , لأنه لا ينفع الناس , وقد يكون نافعا كقوة لإستنهاض إرادة الخير في أعماق النفوس البشرية

ما يجري في واقعنا الذي يبدو أليما وقاسيا ومشحونا باليأس , أن الأنظمة الجديدة القائمة في المجتمعات التي هبت نحو الديمقراطية , لم تؤسس لأنظمة حكم تنفع الناس

لهذا فإن علاج التداعيات لا يكون بالمواجهات الضارية , وإنما بتأمين حاجات الناس الأساسية , التي تتلخص , بالنظام النزيه العادل الإنساني الرحيم , وسيادة القانون والدستور الوطني الصريح

علينا أن نفكر بما ينفعنا ونستثمره , ونعرف ما يضرنا فنتجنبه ونناى عن سبله , فالحياة تتطور بالعمل النافع المؤمّن للمصالح المشتركة في المجتمع

إرتباط كامل النص:

http://www.arabpsynet.com/Samarrai/DocSamarraiWaMaSawahaa265-070820.pdf

***   ***   ***

شبكة العلوم النفسية العربية

نحو تعاون عربي رقيا بعلوم وطب النفس

الموقع العلمي

http://www.arabpsynet.com/

المتجر الالكتروني

http://www.arabpsyfound.com

الكتاب السنوي 2020 1 " شبكة العلوم النفسية العربية " (الاصدار الثامن)

الشبكة تطفئ شمعتها التاسعة عشرة وتدخل عامها العشرون من التأسيس

" 20 عاما من الكدح... 18 عاما من الإنجازات "

http://www.arabpsynet.com/Documents/eBArabpsynet.pdf